الجزء الرابع المجلد الخامس والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

محرم الحرام ١٤٠٥ هـ
تشرين الاول ١٩٨٤ م

شعر الحرب في العصر العباسي

الدكتور نوري حمودي القيسي

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

من الطبيعي ان يتأثر الشعر الحربي في العصر العباسي بما تأثرت به بقية انواع الشعر من حيث التطور والتجديد في المعاني والاغراض بعد أن تغيرت أساليب القتال واختلفت وسائل الحرب ، واتسع نطاق استعمال الاسلحة ، وان هذا التطور صاحبته عوامل أخرى كان لها اثرها في توجيه الشعر الحربي توجهاً يتناسب مع ظهور العوامل من جهة وما يتحسس به الشعراء من جهة أخرى ففتور حركة الفتح وضيق دائرة البطولة وانحسارها ، وتسنم بعض الاعاجم مناصب القيادة واتساع قاعدة الشعراء من غير العرب حمل الشعراء العرب على الانصراف بحديثهم الى مدح الخلفاء باعتبارهم القادة الذين يتحملون اعباء الادارة العسكرية ، وان النزعة العربية التي تحكمت في توجيه الشعراء تؤكد هذه النزعة ولعل قصائد ابي تمام في مدح الافشين بعد قهره بابك الخرمي دليل على خلوها من الحماسة التي عودنا عليها الشاعر في مديحه لابي سعيد الثغري وخالد بن يزيد بن مزيد الشيباني والمعتصم وغيرهم ممن كانت تثير بطولتهم في نفس الشاعر أسباب الاعتزاز وعوامل التجاوب وتحدد مسار البطولة الذي اضفى على قصائده خلود التعبير ، وجعلها نماذج للاستشهاد الدائم حتى أصبح تاريخ هذه القصائد يؤكد ان الايدي التي حملت السيوف العربية المصلتة أطول في العزيمة وأن القلوب التي شدّت عليها اكثر وعياً وأقوى عزيمةً وقد تجلى هذا الاحساس المتمكن في حربيات ابي

تمام والبحتري والمتنبي وابي فراس . وكانت معظم المعاني التي يتحدثون عنها تلتقي في حدود الافكار المجمع عليها من حيث الاحكام . وان كثيراً من هذه المعاني كانت تتداول في القصيدة العربية التي توارثها الشعراء ، وان ظهرت بعض الافكار التي اغنت القصيدة بخصائص البطولة أو المبالغة في اعطاء صورة البطل او تحديد قدراته وامكاناته القتالية التي تصل الى حد الاعجاز احياناً . فالخلود يكمن في الاقدام وان النهاية غير المشرفة هي من نصيب المترددين المتخاذلين وان هؤلاء يكونون اكثر تعرضاً للموت من اولئك الذين يجابهون الاعداء بصدورهم . وان الإدبار والهزيمة تُهيئ الفرصة للوقوع في أيدي الخصوم قتلاً أو اسراً وظل السيف في قصيدة الحرب هو الحد الفاصل . والقوة هي المحور الذي ترتكز عليه حركة الوجدان البطولي ، والاقتدار والجرأة والتحكم في الموقف وخوض غمار الحرب واقتحام الردى ومطاردة الخصم كلها قيمٌ ثابتة في اسلوب المعركة حاول الشعراء أن يستخدموا براعتهم الشعرية في انتزاع الصورة المتحركة ، ووضع الألوان المناسبة ، واستخدام الصناعة اللفظية لأحكام ضبط العلاقة بين الفعل والحس ، وتوثيق أواصر التمكن بين الفكر والاقتدار ، والمزاوجة بين أحداث التاريخ ودور الامة ، واستلهام الحدث وقدرة استيعابه . فابو تمام يقدم لنا التاريخ مفصلاً ، والاحداث مجسدة في لوحة شعرية كاملة ، تتحدث بها الوقائع من خلال صور فنية ، واشكال بارعة تتداخل فيها ثقافته الواسعة وتشابك موروثه الذي تجلّى في استخدام صور البديع مجسدة في اذلال الصخر والخشب والاذلان اللذان وجد فيهما المتلمس صورة الخضوع والاذلال ، وربع ميّة الذي يطوف به غيلان والدلاء والاوتاد والطنب التي توزعت في ثنايا قصيدته والايحاءات العربية الخاصة التي اغنت قصيدته بعناصرة جديدة وشدّت بين أواصر المعاني ولونت الصور بقسمات تألقت فيها الروح العربية فاستقامت ألوانها (١)

(١) ينظر ديوان ابي تمام .

ويتجلى استمرار توجه الشعر الحربي في التنوات التي حُدّدت له وهو يقطع العصر الأموي ، فتظل معاني البطولة والشجاعة والفروسية هي النماذج التي استغرقت من الشعر اوسع صفحاته ، وقيم التضحية والفداء والمصاولة هي الصور التي استأثرت باهتمام الشعراء فالقادة ابطال يحفظون للملك صولته ، وشهب الموت حين تغشى الوغى ، يخوضونها بوجوه ضاحكة وثغور باسمة ، وهم كالآجال تسعى الى الاعداء فتستل ارواحهم حين تريد ، يطعمون الطير من جثث اعدائهم وهي — كما قال النابغة — تتبعهم في كل مكان يحاربون فيه لما تعودت عليه من طعام فهذا مسلم بن الوليد يجد في يزيد بن مزيد الشيباني كل الصفات المؤهلة لهذه البطولة فيقول (٢) :

سد الثغور يزيدٌ بعدما انفــرجتْ
بقائم السيف لا بالخَتْل والحَيَــل
كم قد أذاقَ حمام الموتِ مــن بَطلٍ
حــامي الحقيقةِ لا يُؤتى من الرَهل
يغشى الوغى وَشهاب الموت في يده
يرمي الفوارسَ والابطــال بالشُعَل
يفتَرّ عند افترار الحــرب مبتَسماً
إذا تغيّر وجه الفارس البطــــل
مُوفٍ على مُهجٍ في يوم ذي رَهجٍ
كأنه أجــل يسعى الى أمــــلِ
ينال بالرفق ما يعيا الرجالُ بــه
كالمــوت مُستعجلاً يأتي على مَهل ..

(٢) مسلم بن الوليد / الديوان / ٨ — ٩ .

لولا دفاعُك يأسَ الروم إذ بكرت

عن عثرة الدين لم تأمن من الثكل .

انها صورة البطل المنتصر والقائد المتمكن والفارس المتحكم في اقتدارٍ لايُبارى، وعزم ترك للشاعر فرصة التعبير ، وخيّره في انتقاء المواقف التي يراها من حيث الأداء وينتهي اليها من حيث التصور بما أملاه على ساحة المعركة وفرضه على الخصوم وسجّله من ملاحم الانتصار . والقصيدة نشيد متصل من المفاخر وسيلٌ جار من معاني البطولة ..

وتبقى قصيدته في مدح داود بن يزيد بن حاتم بن خالد بن المهلب لوحة تكاملت فيها عناصر البطولة واستذكرت بها معاني الجود والوفاء ويخلده بيت الشاعر الذي اصبح مثلاً لكل تضحية ونموذجاً لكل وفاء وصوتاً لكل رائد حيث يقول (٣) .

تجود بالنفس ان ضنّ الجـــواد بها

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ويظل داود القائد في لوحة الشاعر شجاعاً يتفرّد بهذا الضرب من ضرُوب البطولة ، ويبلي في القتال احسن البلاء ، ويمازج الشعر في حديثه عنه وعن غيره من الشعراء بين الجانب الخلقي والبطولي فيجمع بين كرَمه وسخائه وصولاته ووقائعه .. (٤)

وانت بالسند إذ هاج الصريخُ بها

واستنفَدَتْ حربُها كيد المكايد (٥)

---

(٣) مسلم بن الوليد / الديوان / ١٦٤ .

(٤) مسلم بن الوليد / الديوان / ١٦٨ ــ ١٦٩ .

(٥) اي فرغت تلك الحرب بكيد كل مكياد حتى عجزوا عنها وانقطع كيدهم فيها .

واستغزر القوم كأســاً من دمائهم
وأحدق الموتُ بالكُرار والحيد (٦)
كنت المُهلّب حتى شك عالمِهُم
ثم انفردتَ ولم تُسبقْ بتسويد (٧)
لم تقبلْ السِّلم الإ بعد مقــدرة
ولا تأنّفتَ الإ بعد تبديـــد (٨)
حتى أجابُوك من مستأمِن حَــذرٍ
راجٍ ومُنتظِر حتفــاً ومثمود (٩)
وفي يديك بقــايا من سَراتِهــُم
وهُمْ لديك على وعدٍ وتوعيد (١٠)
ان تعفُ عنهم فأهلُ العفو انت وان
تمضِ العِقابَ فأمرٌ غير مردود
اسمع فإنك قد هيّجت ملحمــةً
وفدتَ منها بأرواح الصنــاديــد

(٦) استغزر القوم : اي شرب بعضهم دماء بعض يريد قتل بعضهم بعضاً . الكرار : الذين يكرون فيها . الحيد : المنهزمون .

(٧) المهلب : جد الممدوح . يقول : قمت في تلك الحرب مقام المهلب حتى ظن عالمهم انك المهلب ثم انفردت بخصالك في هذه الحرب حتى تبينت للناس .

(٨) لم تقبل السلم من اهل السند الا بعد ما قدرت عليهم ولا جمعتهم الا بعد تبديد اي بعد ما بددتهم بالحرب والايقاع بهم والقتل .

(٩) يقول : بعضهم يطلب منك الأمان ويحذر سطوتك وبعضهم منتظر حتفا اي قتلا وبعضهم مثمود : اي لم يبق من اجله الا قليل يعني الجرحى .

(١٠) يقول : وفي يديك بقايا من سراتهم ، اي من اشرافهم يرجونك ويخافونك لأنك اخذتهم على غير عهد .

ويواصل مسلم بن الوليد مديحه وهو يذكر زيد بن مسلم الحنفي من وائل (١١) :

فتى لا ترى كفّاهُ للمال حُرْمةً
إذا لم يكن في كُلّ يوم يُقسَّمُ
إذا حلّ ارضاً حلّها البأسُ والنّدى
فأيسَرَ ذَو عُسْر وعزَّ مُهضَّمُ
ولم ترَ قوماً حاربوه فـادركوا
نجاةً ولا قوماً رَجَوْه فأعْدَمـوا
وما مرّ يومٌ قطُّ إلاّ جرَت بـه
على الناسِ من كفّيه بُؤس وانعُمُ

الى أن يقول :

سلْ الحربَ عن زيدٍ إذا هي أُوقدتْ
وَدَبَّ لها شرْبٌ من الموت مُفْعَمُ
وصافَح حَدَّ البيضِ بيضُ كماتها
وكان عناءَ الخيلِ فيها التحمحمُ
وذُمّ كميٌّ واستُفزّ مبارزٌ
وأُرهِبَ مرهوبٌ وخاطر مُقدِم
يُخبِّرك عن زيدٍ بحسُن بلائـه
ظُباتُ سُيوفٍ والرشيجُ المقوّم

ولم ينس الشعراء إنسانية المقاتل العربي ، فهو الذي يعفو إذا قدّر أن العفو طريقُ النجاة والحسم أما الأسرى فقد وجدوا في عطف القادة استجابةً

(١١) مسلم بن الوليد . الديوان / ١٨٠ ـ ١٨٢ وينظر الديوان / ٢٥٤ .

لنداء الانسانية وفكاكاً من قيود الأسر فهذا مسلم بن الوليد يذكر زيد بن مسلم ويشير الى هذا العطف الانساني (١٢)

كم من أسير قد دعاك مُكبَّل
ففككتَ عنه القيدَ والأغـــــلالا
إن السيوف إذا الحروبُ تسعّرَتْ
بلكَ توعدُ الفُرسان والأبطـــالا
وكّلتَ نفسكَ بالمحامِدِ والعُلى
فجعلتَهـــا لكَ دَهْرها أشغـــالا

وتأخذ الثغور في قصيدة الحرب بُعداً محسوباً لاهميتها في الدفاع والمقاومة والحماية وابعاد شبح الدمار والهلاك وقد استأثر اصحاب الثغور باهتمام الشعراء لما يتحماونه من اعباء ويضطلعون به من مسؤوليات ويلتزمون به من يقظة وحذر ويتابعون واجبات تفرضها طبيعة الموقع الحربي ، وخطورة الموضع الدفاعي حتى اصبح ذكرهم في مدائح الشعراء مبعث فخر ، والاشادة بهم من مواقع الاعتزاز في ابواب المديح واوشكنا ان نجد لغة الشعر في هذا الفن تتجه في تعبيرها وادائها وصورها اتجاهاً يختلف عن الصور التي عودنا الشعراء عليها في قصائد الحرب الاخرى وان هذه البواعث كانت حالة من حالة المقاتلين الذين يقفون صامدين بوجه الهجمات المتوالية ، ويخوضون في كل مرة قتالاً صعبا بعد أن اصبحوا على خطوط التماس مع الأعداء ، وعند المواجهة الاولى في الالتحام .. فأصبحنا نجد (سدَّ الثغور) و (سدَّ الخليفة اطرافَ الثغور) وفي بيت مسلم بن الوليد اشـــارة لاستعارة لفظ الثغر للمعنى الحربي الذي وجد فيه قرينة واضحة فأحسن في استعماله وابدع فقال (١٣) :

(١٢) مسلم بن الوليد . الديوان / ٢٠٧ .
(١٣) مسلم بن الوليد / الديوان / ٢٦٧ .

إذا افترَّتِ الثغرَ الخُطُوبُ انبرى لها
بعابسةٍ مُفْتَرُّها الأسْـرُ والقَتْلُ

وتُصبح بطولة يزيد بن مزيد الشيباني نموذج الشعراء في التعبير ، ووجه الفروسية في الاقتدار ويظل دوره الرائد موضع اعتزازهم وتصديه لحركات التخريب موئل استشهاداتهم ، وهم يتناولون الحديث بالفخر ، ويستذكرون الرجال في مواقف البطولـة حتى أوشكت أن تصبح الفاظ (الابطال) و(الفوارس) او (الفارس البطل) أو الكمي من الألفاظ المعتادة في حديثهم ، وربما يدخل عنصر الاحساس العربي المتمثل في هؤلاء القادة العرب وانزالهم الضربات الموجعة في جيوش المتمردين والخارجين على الدولة ، واحباط المحاولات التي ارادت أن تعصف بالدولة العربية في اندفاع هؤلاء الشعراء ، وتوثيب المشاعر الحادة التي تجد اسماء القادة في نفوسهم احساسا مشتركاً في التعبير واداءً صادقاً في التوافق .

ولابد أن يأخذ الشعر في تصوير المعركة لوحة اكثر وضوحاً وانصع الواناً واكثر دقةً لأن الشعر يجد في دقائق الاشياء وتفاصيلها باباً يظهر فيه براعته ، ويكشف عن الابداع الذي يمكن أن تعبر من خلاله العبارة وتوحيه الصورة الفنية ويولده الاحساس المباشر بجوّ المعركة وتثيره جلالة الأحداث وهي تقف عند بطولة المقاتل وهو يقتحم الموت ، أو جرأة المحارب وهو يخوض غمار المعركة وليس أمامه الا النصر أو الشهادة ، فمن شمائل النفس الأبية أن تعاف العار يوم المعركة وتؤمن بالالتزام ، او براعة القائد الذي يحكم القيادة التي لم تترك للخصم فرصة الا الموت او الفرار أو الاستسلام ، وهي أمرٌ ما تنتهي اليه المعارك بالنسبة للمخذولين او المنهزمين وقدم الشعراء في وصف هذه الصور الواحاً نادرة .

ويدخل المنجنيق والعرادات بوضوح في حصار المدن ويكثر استعمالها في الشعر لما تثيره من رعب ، وتحمله من دمار وتورده من هلاك . وكان

خطاب الشعراء يوجه الى صاحب المنجنيق الذي لم تُبق كفه ولا تذر احداً وهم يصوّبون رمياتهم غير مبالين ، ويوجهون قـذائفهم النفطية ونيرانهم الى الغادي والرائح . وتظهر قصائد الشعراء تأثير هذه الاسلحة بوضوح في حصار بغداد بعد المواجهة الحاسمة بين جيش المأمون واهل بغداد (١٤) ويمكن اعتبار قصيدة الخريمي في هذا الجانب أوضح قصيدة قيلت وأطول نفس شعري امتدّ ليصور مأساة الحصار وما تحمل الناس من جرّائه (١٥) .

ويأخذ المنجنيق دوراً خطيراً في حصار عمورية وفتحها والاساليب التي استخدمت في استعمالها بعد أن اصبح استعماله في الحصار وضرب القلاع جزءً من تدريب المقاتلين العرب وبدأ حجم حجر المنجنيق يتطور باتجاه التأثير المباشر ، وانزال اكبر الخسائر بمن يُصاب به . فأهل عمورية بعد أن ضرب سورهم بالمنجنيق وانفرج السور علقوا عليه الخشب الكبار كل واحدة بلزق الأخرى فكان حجر المنجنيق اذا وقع على الخشب تكسر ، فعلقوا خشباً غيره أو صيروا فوق الخشب البراذع ليترّسوا السور (١٦) .

ان تمرس المقاتلين باساليب الحرب واتخاذهم المواقف المناسبة كانت تفرض عليهم مواجهة المعارك بما تحتاج اليه من خطط وقد حققت لهم هذه المتابعة اسباب الانتصار والتفوق في كثير من المعارك . وتبقى ملاحم ابي تمام من اوضح قصائد الحرب قدرة في التعبير وتحديداً لمواضع المعارك واحاطة بالاجزاء التفصلية التي تلازم الاحداث فكان شعره صوتاً من اصوات التاريخ وتأكيداً لتحديد التفاصيل فأدى مهمة الاكتمال التي تلائم بين الحدث والتاريخ وتوفق بين المسافات التي تبقى بعض اطرافها غير واضحة المعالم وتسد الثغرات

(١٤) تاريخ الطبري ٨/٤٤٥ ـ ٤٧٠ وما بعدها .
(١٥) الخريمي . الديوان / ٢٧ ـ ٣٧ .
(١٦) الطبري . التاريخ ٩/٦٤ .

التي تكبر مساحاتها في حالات المفارقة المتميزة . واكتست بعض قصائده بجلال الملائكة التي تحارب مع المسلمين وهي استلهام من تراث الشعر العربي الذي وجدناه واضحاً في شعر الرسالة الاسلامية وبداية الدعوة عند حسان وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة والشعراء الآخرين الذين خلدوا هذه المعاني وظلوا يؤيدونها لترسيخ ايمان المقاتلين وتثبيت اقدامهم فابو تمام حين يمدح المعتصم ويذكر وقعاته في الخرمية يقول (١٧):

وعِشَّيةُ التَّلِّ الذي نعشَ الهُدى
أُصُلٌ لها فَخْمٌ من الآصال
نَزَلَتْ ملائكةُ السماء عليهمُ
لما تداعى المسلمون نِزَالِ
لم يُكْسَ شَخصٌ فَيأه حتى رمى
وقتُ الزّوال نعيمهم بزوال

ولم تبتعد عن الشاعر ذكرى معارك المصير التي خاضها العرب قبل الاسلام مثل ذي قار وايام المسلمين في بدر وأحد والخندق فقد اصبحت وجهاً من وجوه استذكاره ، وصوتاً متميزاً من اصوات الاستلهام الذي استعاد به امجاد العرب وهم يقفون وجهاً لوجه أمام التحديات التي جابهها عصره (١٨) .

واستخدم الشاعر الألوان في قصيدة الحرب استخداماً مناسباً فالبطل الذي يسقط مضرجاً بدمه في ساحة المعركة يظل اللون الاحمر الذي تضمّخ به

(١٧) ابو تمام . الديوان ١٤٠/٣ .

(١٨) ينظر ديوان ابي تمام في يوم الهباءة ٣٨٢/١ وبعاث ٣٢١/١ وقضة ٤٤/٢ وكليب ١٩٢/٣ وفيف الريح ٣٠٠/٣ ويوم البشر ٣٠٥/٣ وبزاخة ٥٦٦/٤ وذي قار ١٧٧/١ ، ١٢٥ ، /٢١٧ ووقعة بدر ٦٩/٢ ، ١٣٩/٢ وحنين ٣٠٧/٣ واحد ٢٠/٢ .

جسده الطاهر هو اللون المتميز في النهار لأهل الدنيا ولكنها تصبح زاهية خضراً من سندس وهي لباس الشهداء من أهل الخاود (١٩) ..

تردّى ثيابَ الموت حمْراً فما أتى
لها الليلُ الإ وهي من سُندسٍ خضرُ

ان قصائد ابي تمام في هذا الجانب تحدد كثيراً من الادوار الكبيرة التي حققها القادة العرب وهم يقاتلون اتباع بابك الخرمي (المحمّرة وعلى رأسهم المحمّر الزنديق) الذين فروا الى بلاد الروم ويقاتلون الروم الذين وجدوا في هؤلاء اتباعاً يناصرونهم العداء على المسلمين . ومع ان الاخبار المتباعدة التي تتناثر في كتب التاريخ لا تعطي الصورة التي كشفها ابو تمام فلابد ان تكون المصادر البيزنطية أوفى نصيباً في السرد واكثر تفصيلاً في الرواية ولعلها تقف عند هذه المعارك التي تولاها هذا القائد وهو يصل الى اماكن بعيدة مثل قسطنطين وهي غير القسطنطينية ومدينة فروق وعقرقس وخلجان البسفور التي شهدت لهذا البطل بالاستبسال ومكنته من تحقيق الانتصارات الكبيرة من خلال المعارك الحاسمة والملاحم الخالدة .

ففي مدحه لابي سعيد محمد بن يوسف الثغري وهو يغزو بلاد الروم يحدد لنا الطريق والسلاح الذي حمله المحاربون ونوعه وصفته والضواحي التي التي وصلوا لها وهي (الفَيدوق) و (الناطلوق) ليصل الى (الابسيق) وهو عظيم الروم وينزل في (دَرَوْلَيةَ) وهي مدينة اخرى من مدن الروم فينزل سوقها ويغادره . وقد توزع الخصوم بين هارب من حريق السيف وواقع بين نار الحريق . ويبدو ان القتال تحول الى شوارع المدن واسواقها .. ويستمر الشاعر في هذه الاوصاف ليقول (٢٠) :

---

(١٩) ابو تمام . الديوان ٤/٨١ .
(٢٠) ابو تمام . الديوان ٢/٤٣٤ ـ ٤٣٦ .

وَقْعَةٌ زَعْزَعتْ مدينةَ قسطَنـ طين حتى ارتَجّتْ بُسور فرُوق
وَوَحقٍّ القنا عليه يمينـــاً
هي أمضى من الحسام الفتيـق
أنْ لوَ ان الذراع شدَت قُواهـا
عضُدٌ أو أُعينِ سهم بفوقِ
ما رأى قُفْلَها كما زعموا قُفْـ
ـلاً ولا البحرِ دَونَها بعميـقِ
غير ضَنْكِ الضُلوع في ساعة الرّ
وع ولا ضيّقٌ غداة المضيـقِ
كم أسير من سرّهم وقتيـل
رادع الثوب من دم كالخـلوقِ
يستغيثُ البطَريقَ جهلاً وهل تطلب الإ مُبْطرق البطريقِ

والقصيدة بتفاصيلها وأوصافها قصة متوالية الحلقات وملحمة محكمة النسج من حيث الاداء والمتابعة وتحديد المواضيع والتعبير عن حالات المقاتلين واحاسيسهم وما كانوا يرجونه منها ويتمنونه عليها ويُسعدون به والاصوات التي كان يميزها الشاعر وهي تعطي الحالة التي تراودهم من استغاثة أو استسلام أو انتشاء . وكأنه كان يرافق كل مقاتل ويصاحب كل عريف ويعيش مع كل حالة فأغنى القصيدة بصور البطش والفتك من جهة وصور الانسانية من جهة اخرى ويمضي الشاعر في استذكار أيام بكر بن وائل من يوم التحالق وهو يوم قضّة ويقرنها بحديث يوم المحمرّة من الزنادقة وانتهت القصيدة (*) الى بطولة الفارس ابي سعيد وهو يسجل الانتصار الرائع والظفر الحاسم .

وفي قصيدة أخرى يمدح هذا القائد ويشير الى حسن بلائه في الحرب

(*) الأبيات من ٤٦ – ٧٣ إشارات واضحة الى هذا الحديث .

ووقعه في جنود الاعداء (٢١) .

ومن كان بالبيض الكراعب مُغرَماً
فمازلتَ بالبيض القواضب مُغرْما
ومن تَيَّمَتْ سُمُر الحسان وأُمُها
فمازلت بالسمر العَوالي مُتَيَّما
جَدَعت لهم أنفَ الضّلال بوقعة
تَخَرَّمْتَ في غَمائها من تخرّما(٢٢)
لئن كان أمسى في عَقَرْقُس أجدعا
لمن قبلُ ما أمسى بميمذ أخرما (٢٣)

واذا كانت قصائد ابي تمام الحربية نشيداً قوميا رائعا فان تراتيل الوفاء البطولي لقادة المعارك ظلت بعد ابي تمام تعزف على الحان البحتري وهو يتحسس الوجدان الصادق للذات العربية والشعور المشترك الذي تعبر عنه الدلالة الشعرية وهي تتمثل في ابطال لهم صولاتهم في ميادين المعارك ومواقفهم في أيام المحن والمجابهة ، ويبقى النشيد الخالد الذي رتّلته قيثارة الشعر العربي لابي سعيد هو النشيد الذي يسجل لهذا البطل روائع الصفحات ولعلّ قصيدة البحتري التي يمدحه بها تمثل القدرة القتالية التي تفرد بها هذا القائد الذي اصبح اسمه علامة مرعبة يفزع منها صبيان الاعداء (٢٤) ..

---

(٢١) ابو تمام . الديوان ٣/٢٣٦ .
(٢٢) تخرمت واخرمت واحد اي قطعت راسه . وتخرم دخل في الخرمية يعني بابك واصحابه .
(٢٣) وعقرقس وميمذ اسماء مواضع اعجمية .
(٢٤) البحتري . الديوان ١/٢٨٠ ــ ٢٨١ .

قد ذَمَمْنا من دهرنا ما حَمدنـــا
وسَخطْنا من عيشنا ما رضينـــا
تكرهُ العاجزَ الضعيفَ إذا جـــا
ء وكَنتَ القوي فينـــا الامينّـــا
ثبت اللهُ وطأةً لك أمســـت
جبـــلاً راسياً على المشركينـــا
ربما وقعةٌ شمَلْتَ بهـــا الرو
مَ فباتوا اذلّة خاضعينـــــا
قد أمنّا أن يأمنَوُك على حـــــا
ل ولو صَيّروا النجـــوم حصونا
فزّعوا باسمك الصبيَّ فعـــادت
حركاتُ البكَاء منـــه سكونا
وتوافت خيلاك منَ أرض طرسو
سَ وقَـــاليقَـــلا بأرْدِنْدوُنـــا
ونفيرٍ الى عقرقس انفَـــرْ
تَ فكُنتَ المظفّرَ الميمـــونا

فالصورة التي يقدمها الشاعر تذكرنا بالآثار المرعبة التي تركتها صولاته الجريئة وما انزله جنوده بالاعداء وهم يصولون صولات الأسود ويوزعون الموت اسنة وَرماحاً وسيوفاً وقد افرد له البحتري في ديوانه اثنتي عشرة قصيدة خلد فيها وقائعه ، وسجّل ماثره ، وحدّد كثيراً من الخطوات التي تحركها والمواقع الحربية التي خاضها ، واساليب القتال التي استخدمها وحقق من خلالها الانتصارات التي حفل التاريخ الادبى بها ، ووجد فيها الشعراء ينبوعاً من ينابيع العطاء التي أخصبت اغراض شعر الحماسة ، وهيأت لهم

الميادين الفسيحة لاختيار الفاظ البطولة والفداء ، ووضعت بين أيديهم روائع الانتصار الذي يترك لهم حرية التحرك في ميادين الفخر والاعتزاز .

إنالدراسة التحليلية لشعر الحرب والوقوف عند قصائد المديح أو الرثاء التي مدح بها القادة أو رُثوا بها – لأن قصائد المديح والرثاء في هذه الفترة لم تقف عند حدود المعاني التقليدية لهذين الغرضين بعد أن وجد الشعراء فيهما عرض الحديث المناسب لتخليد القائد البطل أو الفارس المنتصر من خلالهما – تضع الاطار العام لحركة التاريخ الحربي أو الأهمية المتميزة لأدب الحرب الذي ظل دوره في نطاق الاخبار التاريخية التي تقتصر على الافاضة في كثير من الأحداث وتستسلم للرد الذي يحدد المؤرخ في ضوئه موقفه ، وتبتعد عن المواقف التي تكشف عن قدرات فائقة ومواقف بطولية يسجل القادة فيها روائع التضحيات إيماناً بالقيم التي حملتهم على أن يكونوا في هذه المواقف ووفاءً للمبادىء التي عاهدوا الله وانفسهم على الالتزام بها . وربما تسهم في تحديد مواقف المؤرخين خلال الاحداث التي يسجلونها واتساع الرقعة التي يؤرخون لها وتوفر الوثائق التي يعتمدون عليها والموقف السياسي الذي يتيح لهم التعبير في ضوء الواقع المناسب وحقائق الاحداث . وهي مسألة لا تقتصر على تاريخ العرب وحده وانما ظاهرة لازمت تواريخ الأمم وكتبت في ضوئها تواريخ بقيت اساساً لتحديد الأحكام ،وأدى هذا الاتجاه الى ضياع الوثائق الأخرى وأبعد الروايات التي لا تطابق هذا الاتجاه وهي مسألة ادركها المؤرخون ولكنها ظلت قائمة لا تتيح للمؤرخ الخروج عن الروايات المتوفرة لديه من المصادر المتداولة ... وهذه الاسباب مجتمعة لم تترك لهـذا المؤرخ قدرة التفاصيل التي وقف عندها الشعراء وهي أقرب الى الحدث من المؤرخ ، وادق في التفاصيل منه واكثر قدرة على التعبير مما يتلمسونه من مشاعر ترتسم على وجوه المقاتلين أو تعيش في وجدانهم، أو تساورهم وهم على طريق المواجهة الحاسمة

وانها كانت اوضح في ابراز الدور البطولي والاشادة بالموقف الصائب والاعلام باخبار الانتصارات التي تسجل والعوامل الحقيقية التي تؤدي الى هذه الانتصارات وقد وجدت في هذه الاضاءات صورة اكثر اتساعاً في معرفة الزوايا التاريخية غير المنظورةفي هذا الضرب الفني من الشعر بعد أن بقينا نحكم على الاحداث في ضوء المعطيات التاريخية التي يقف عندها المؤرخون .. ان هذه الملاحظة لا تغمط حق المؤرخين ولا تقلل من الدور الخطير الذي اضطلعوا به والقدرة الثقافية التي عرفوا بهـــا ولكن الأسباب التي ذكرناها ربما تكون اسباباً مؤثرة في المنهج التاريخي الذي ارتضوه لأنفسهم ولعلّ وقوفنا على اخبار بعض الحوادث وقراءاتنا لتفاصيل المعارك التاريخية الحاسمة قد ترك لنا مجال هذا الحديث بعد أن وجدنا شـــاعرين كبيرين من شـــعراء القرن الثالث الهجري وهما ابو تمام المتوفى سنة ٢٣١ والبحتري المتوفى سنة ٢٨٤ وابنين بارين من من ابناء الأمة يقفان عند هؤلاء القادة الذين تصدوا لحملات الروم التي هدّدت الدولة وحركات الارتداد التي بذلت كل ما تستطيع لتهديد كيانها وحاول هؤلاء الاعداء ــ من الداخل او الخارج ــ بكل الوسائل التي امتلكوها ومَن وقف معها من قوى الردّة والحركات المضادة ان يوقفوا مسيرتها الحضارية ويضيّقوا عليها الحصار لخنق تطلعاتها الفكرية وحصر رسالتها السماوية . فكان الموقف القومي الذي وقفه هذان الشاعران . حافزاً لكل القوى الخيرة التي تحس بانتمائها وتشعر بصلتها ومصيرها لتأخذ دورها في التعبير عن الصوت الواعي والضمير الحي والموقف المطلوب لتحقق لنفسها ارادة المجابهة وتمنع تلك القوى من التأثير في التوجه الذي انطلقت فيه حركة الفكر العربي المبدع والخلاق .

فموقف الشاعرين من تصوير الحرب ــ بعد أن حضرا وقائعها ــ يحدد طريق المعالجة التي اتسمت بفنية وشاعرية فكان المديح والرثاء هو الحالة

المطلوبة التي تكرّم الرجال . في صورة المديح وتعبّر عن الذات في اعطائهم الثقة التي يستحقونها باعتبارهم الحماة الحقيقيين عن الدولة وان الصياغة الشعرية التي اصطبغت بها قصائد هؤلاء في حالتي المديح أو الرثاء تختلف من حيث الوفاء والصدق عن القصائد الاخرى التي قيلت في غيرهم .

فابو سعيد محمد بن يوسف الثغري بطل من ابطال الثغور الأسلامية امضى في حمايتها اكثر من سبع عشرة سنة وهو يدفع عنها هجمات البيزنطيين ويصد جحافلهم والثغور من اكثر الاقاليم خطراً واشدها عناداً ومكابرة منذ عهد المعتصم الى زمن المتوكل (٢٢٠ – ٢٣٧ هـ) وقد أهلته هذه الفترة لمعرفة غدر الأعداء ، واساليب تسللهم وطرق قتالهم حتى تمكن من التفرّد بهذا الفن القتالي الذي فرضته ظروف الدولة الجديدة على حماية الحدود الشمالية وان مهمة المقاتلين تفرض عليهم المرابطة على الحدود بعد ان اصبحت الثغور سلسلة من المواقع المحصنة في وجه الغزوات المتوالية التي تعرضت لها الدولة العباسية . فهذا القائد الذي اسندت اليه هذه المهام وخلّده الشعراء بملاحم خالدة يذكره البلاذري مرة واحدة وهي عبارته « وبنى محمد بن يوسف المروزي المعروف بابي سعيد حصناً بساحل انطاكية بعد غارة الروم على ساحلها في خلافة المعتصم رحمه الله (٢٥) ويقف الطبري على اخباره وقفة طويلة وهو بصحبة الافشين في قتال بابك الخرمي ويبرز دوره المتميز في الشجاعة والاقتدار وهو ينهي تمرد بابك (٢٦) إما دوره في الدفاع عن الثغور فلم اجد له ذكراً فيما عرض له . فالتاريخ أغفل ذكر هذا البطل أو لم يوفه حقّه أو يمنحه دوره الذي استحقه ولكن الشعراء عرفوا دوره وقدّروا بطولته

(٢٥) البلاذري . فتوح البلدان /٢٢٩ .

(٢٦) الطبري . تاريخ الطبري ١١/٩ – ١٤ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ١٨٥ .

فاستحق عندهم ما هو جدير به من ثناء وتمجيد وذكر وهي صورة لا تدخل في الاطار التاريخي وحده وانما تتجاوزه الى الحس المشترك الذي يشدهما بالقائد والايمان الذي يوحد بينهم جميعاً وهم يقاتلون على جهة واحدة وينتمون الى أمة واحدة ويتحسسون بالمخاطر التي تتعرض لها ، فكان حسُّهم الشعري يفرض عليهم ابراز اهميته ، والوفاء لشجاعته . ووضع الشعر في الموضع الذي تُعلى به همم الرجال الاماجد ، وتكرّم بمآثره مناقب القادة الميامين فخلدوا في قصائدهم ما أغفل ، ووقفوا في شعرهم على ما أهمل فاستجابا لبطولة فريدة وطاقة حربية نادرة واستطاعا أن يرفعاه من غفلة التاريخ ، وينقذاه من وهدة الضياع التي اطبقت على كثير من القادة والمحاربين فغابت في غيابهم احداث كبيرة ونسيت بنسيانهم مواقف بطولية خالدة وضاعت انتصارات سجلت بدماء هؤلاء البواسل وقد احصيت عدد القصائد التي اشار فيها ابو تمام الى هذا البطل فكانت اكثر من خمس وعشرين قصيدة وقطعة وقد تحدث عنه باحساس يفيض بالبطولة التي عرف بها ويكبر بالانتصارات العظيمة التي انجزهـــا على امتداد الثغور الاسلاميـــة المتاخمة لبلاد الروم . وتعد مدائحه لوحة متكاملة لحركته وقدرته وانتصاراته وما وصف به وعرف عنه وان هذا التوجه في تحليل قصائد ابي تمام يعطي شعره لوناً جديداً وبعداً قومياً مضافاً لما عرف به هذا الشاعر وان هذا التحليل يتم في اطار الدراسة الدقيقة لقصائد المديح التي اوقفها الشاعر على هذا القائد أو على غيره من القادة العرب الذين خفقت بذكرهم تواريخ الامم واعترفت ببطولتهم اخبار الوقائع (٢٧) .

---

(٢٧) ينظـر ديوان ابي تمـام ١ / ١٦٨ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ و ٢ / ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٢ ، ٣٦ ، ١٣٨ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢٢٢ ، ٣٧٦ ، ٤٣٠ .
و ٣/١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ .

وبقيت اصداء اولئك القادة في ثنايا الشعر العربي تملأ اسماع الاجيال بما اشادوه من صروح المجد الحربي بمعارك النصر فكان ابنه يوسف بن ابي سعيد الثغري بطلاً استعاد مجد والده وأخذ دوره في كبح جماح الروم وايقاف زحفهم ومطاردتهم وكانت بلاد الاناضول هي المسرح الفسيح الذي تحركت عليه قصائد البحتري وهو يواصل مدائحه لهذا الفتى الذي اخترق هضبة الاناضول ووصل الى مسافات مرغاة في البعد وقد التقت في رحاب هذه الفروسية العبارة البلاغية لشاعر الرقة والزخرفة واللفظة الموحية لتتحول الى نشيد قومي آخر يذكرنا بمواقف الشعراء وهم يُنشدون قصائد الفخر ويسجلون أيام الانتصار ولم يكن البحتري بعيداً عن المعركة ، أو ناقلاً لاخبارها أو سامعاً احداثها وانما كان يعبش لحظاتها بانتفاصيل ، ويتابع وقائعها عن قرب ، ويسجل مشاعر المقاتلين وهواجسهم والخيل وحسنها ، سراها وغارتها . فيقول (٢٨) :

فلم أرَ مثلَ الخيل أبقى على السُّرى
ولامثْلَنا أحنى عليــه وأشفقــا
ومــا الحسنُ الإ ان تراها مغيرةً
تُجاذبُنا حبلاً من الصبح أبرقاً
فكم من عظيم أدركته صدُورُهــا
فبات غنياً ثم أصبح مُملقــا
وأوحشها من يوسُف حملُ يوسف
عليها المعَالي جامعــاً ومُفَرّقا
حوى كلّ ما دون الخايج ولم تدَعْ
فؤاداً بما دونَ الخايج مُعَلَّقــا

(٢٨) البحتري . الديوان ١/٢٩٨ ــ ٢٩٩ .

يرى الغزو حَجّاً فالمقصِّر ما لَه
كأجر الذي طاف الطواف مُحلّقا
إذا جاد كان الجود منه خليقة
وان ضنّ كان الضنُّ منه تخلّقا
فإن شهروا الماذيّ كيما يُرَهّبُوا
شهرت لهم بأساً عليهم مُحَقّقَا
وفي كل عالٍ من قُراهم وسافلٍ
لهيبُ كأنّ الوشيَ فيه مُشقّقا
حريقٌ لو النعمان يوم أُوَارَةٍ
رآكَ تُزجّيه دعاكَ مُحَرِّقا (٢٩)
وفي يدكَ السيفَ الذي امتنعت به
صَفاةُ الهدى من أن تَرِقّ فتُخرَقا

ومثل ما كانت تعقر عند قبر حاتم الطائي الجزور وفاءً لكرمه الذي خلده فان البحتري كان يطلب من كل الفرسان الذين يمرون بقبر ابي سعيد أن يذكروا بطولته ويكسروا عنده رماحهم ويمزقوا راياتهم اكراماً لهذا الفارس الذي ظل رمزاً من رموز الشجاعة وفارساً من فرسان الثغور بعد أن اقضّ مضاجع الروم فلم تغمض لهم اجفان ما دام حيّاً .. ولكن الآن وبعد أن وافاه الأجل المقدر يحق لهم أن يناموا بأفواه الدروب .. فقد مات الكرّو الاقدام ... وهي الصورة القريبة من صوره حتى مات مضرب سيفه التي رثى بها ابو تمام حميد الطوسي .. (٣٠)

(٢٩) النعمان : اراد النعمان بن المنذر . يوم اوارة : يوم من ايامهم .
(٣٠) البحتري . الديوان ١٠١/١ . ـ

لا يَهنىء الرومَ استراحَتُهُمْ فقد
هدأوا بأفواه الدّروب ونـــاموا
أمنوا وما أمنُوا الردى حتى انطوى
في التُّرب ذاك الكرُّ والاقــدام
يا صاحَب الجدث المُقيم بمنــزلٍ
ما للانيس بحُجرتيــه مقــامُ
قبر تُكسَرُ فوقه سُمرُ القنـــا
مــن لوعةٍ وتُشقّق الاعـــلام
كنتَ الحمامَ على العَدو ولم أخَــفْ
من أن يكُون على الحمام حمــامُ
ما كنتُ أحسبُ أنّ عزّك يرُتقى
بالنائبات ولا حَماكَ يرامُ

وفي اطار فكرة ابتعاد المؤرخين عن التدقيق في وصف المعارك الحربية واغفال الكثير منها وهي تمثل الجانب العسكري أو القتالي من التاريخ السياسي فان المعارك البحرية كانت بعيدة عن اهتمامهم بما فيها الانتصارات التي تحققت في سجل الجيش بعد أن اصبحت من مهامه الأولى تقوية الاسطول البحري لامتلاك زمام المبادرة للوصول الى السواحل البيزنطية لمنع قواهم البحرية من التوغل الى الموانئ العربية وان أي تردد يساور هذه القوة أو يصيبها فان فرصة انقضاض العدو عليهم تصبح مواتية في الاوقات التي يجدونها، وان تهديدها يظل قائماً ما دامت الشواطئ العربية خالية من المقاومة البحرية من جهة ، وقاصرة عن تهيئة السفن الكفيلة باستمرار المطادرة والانقضاض من جهة اخرى . لأن سطوة البحر والتحكم في الموانئ كانت بيد البيزنطيين طوال الفترات السابقة ، وان كانت بعض الروايات والاخبار تقدم لنا صوراً من استخدام العرب للسفن ، ويُسهم الشعر العربي بذكر هذه الاخبار ويقف

عند الوسائل التي استخدموها وتركت بعض المعارك صداها في الشعر ، ولعلّ مفردات اجزاء السفينة واسماءها وكثرتها في المعجم العربي تؤيد هذه المقولة وتحدد لنا الاهتمام الذي عرفه العرب وتبقى محاولة العلاء الحضرمي صورة لهذا التطلع وتأتي محاولات العبور التي استخدمها العرب في تحرير العراق وبلاد فارس والمعارك الحاسمة التي خاضوها وجهاً من وجوه الاهتمام الذي حقق لهم النصر في كثير منها بسبب ايمانهم الراسخ واندفاعهم البطولي وحبهم لما نذروا له أنفسهم من تضحية ويمكن اعتبار اشارة الخليفة عمر بن الخطاب (رضي) ببعث علقمة بن مَجزّر المُدلجي الى الحبشة في البحر من الاشارات الأولى (٣١) ، وتبقى صورة عمرو بن العاص التي قدمها للخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي) حين سأله عن وصف البحر بعد الحاح معاوية في غزوه من الصور التي كانت تحمل العرب على التهيب في المراحل الأولى تحوّطاً مما يصيبهم به، وحفاظاً على أرواح المسلمين .

ان قرب الروم من حمص وما حملته الرسالة من مخاوف كادت تأخذ بقلب عمرفكتب الىعمرو ابن العاص صف لي البحر وراكبه فإن نفسي تنازعني اليه فجاءت الرسالة . اني رأيت خلقاً عظيماً يركبه خلق صغير ليس الإ السماء والماء، وانما هم كدود على عود . إن مال غرق وان نجا برق. وكان جواب عمر (رضي) فكيف احمل الجنود في هذا البحر ، تالله لمسلمٌ أحبُّ اليّ مما حوت الروم . وحذّره وذكره بما لقي العلاء الحضرمي (٣٢) . وقيل أول من غزا في البحرمعاوية بن ابي سفيان زمان عثمان بن عفان بعد أن استأذن عمر فيه فلم يأذن له ،فلما ولي عثمان لم يزل به معاوية حتى عزم عثمان على ذلك واستعمل على البحر عبدالله بن قيس الجاسيّ حليف بني فزارة فغزا خمسين غزاة بين شاتية وصائفة في البحر ، ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب (٣٣)

(٣١) الطبري . تاريخ الطبري ١١٢/٤ .
(٣٢) الطبري . تاريخ الطبري ٢٥٨/٤ ــ ٢٥٩ .
(٣٣) الطبري . تاريخ الطبري ٢٦٠/٤٦ .

وكانوا يخرجون في قوارب طليقة (٣٤) .

وقيل : غزا معاوية في سنة ثمان وعشرين قبرص وغزاها أهل مصر وعليهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح وخرج قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بأفريقيا ، فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الاسلام ، فخرجوا في خمسمائة مركب، وربطوا السفن بعضها الى بعض حتى كانوا يضرب بعضهم بعضاً بالسيوف وهم على السفن ، ووثب الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن ويتواجأون (٣٥) ، بالخناجر حتى رجعت الدماء الى الساحل تضربها الأمواج ، وطرحت الأمواج جُثث الرجال رُكاماً (٣٦) وتركت هزيمة البيزنطيين في هذه المعركة التي عرفت بذات الصواري أثرها المؤلم في نفوس الروم في المعارك الحربية التي اعقبت هذه المعركة لما تجرعوه من مرارة ، وفوجئوا به من اقتدار عالٍ وهمة صادقة ، فقابلوا بين خيبتهم في اليرموك وهزيمتهم في ذات الصواري وكانت المعركة بداية حروب بحرية متتابعة اتسعت من خلالها قاعدة الممارسة القتالية وقد دفعت هذه المعارك الاهتمام بصناعة السفن فشهدت صناعة السفن وأدواتها ووسائلها واسلحتها عناية خاصة لازدياد الحاجة اليها وخاصة بالنسبة للمدن الساحلية التي تعرضت لهجمات حادة وغزوات متتالية .

وفي سنة اثنتين وثلاثين كانت غزوة معاوية المضبق ، مضيق القسطنطينية . ومعه زوجته عاتكة ابنة قرطة (٣٧) وروى المقريزي أن أمير البحر عبدالله بن سعد كانت معه أمرأته بسيسة ابنة حمزة بن يشرح ، وكان الناس يغزون بنسائهم في المراكب وكانت بسيسة تشارك في القتال وتعطي رأياً فيه (٣٨) .

---

(٣٤) الطبري . تاريخ الطبري ٤/٢٦١ .
(٣٥) الوجأ : اللكز والضرب .
(٣٦) الطبري . تاريخ الطبري ٤/٢٩٠ .
(٣٧) الطبري . تاريخ الطبري ٤/٣٠٤ وينظر البلاذري /٢١٠ .
(٣٨) المقريزي : الخطط ١/٢٧٣ .

ولمّا غُزيت قبرص الغزوة الاولى ركبت أمُّ حَرام بنت ملحان مع زوجها عُبادة بن الصامت ، فلما انتهوا الى قبرص خرجت من المركب وقُدمت اليها دابة لتركبها فعثرت بها فقتلتها فقبرها بقبرص يدعى قبر المرأة الصالحة(٣٩) .

لقد كان تحصين المدن الساحلية ضرورة لازمة تفرضها ظروف الدفاع ، وتؤكدها الحاجة التي اصبحت جزءً من خطة الحفاظ على سلامة هذه المدن وكانت استجابة العرب لهذا التوجه استجابة ايجابية دلت على عزمهم واصرارهم واكدت رسوخ ايمانهم وجرأتهم في مقاومة الاعداء ، وقد وفقوا لتجاوز حالة التردد ونجحوا في تخطي العقبات التي ظلت تحول دون هذا الاستقرار وتمنعهم من تحقيق الرغبة في بناء هذه المدن بناءً يتناسب مع المهمات التي تؤديها وتحصينها تحصيناً يمكنها من مقاومة الغزو الذي تتعرض له واحتفظوا بما وجدوه من حصون قائمة واستفادوا منها بعد أن وجدوها سليمة وصالحة وقادرة على ان تكون قاعدة للدفاع بسبب اسوارها المنيعة وابراجها المتحكمة في حركة القادمين اليها او القريبين منها واعادوا بناء ما تهدم منها او اهمل بعد ان ادركوا اهميتها الحربية وضرورة ترميمها وقد وفرت لهم هذه التحصينات اسباب الحماية ولم يقتصر الاهتمام على العناية بالحصون الساحلية وانما كانت خطوات معاوية واضحة في التوجه لمتابعة السياسة البحرية والدفاع عن السواحل العربية بتشجيع الناس على استيطان المناطق الساحلية وتشجيع الراغبين من اهالي المدن ليتعودوا على رؤية البحر وتزداد خبرتهم بركوبه وتعظم رغبتهم في ارتياده . وقد اعدّ معاوية خطة محكمة لاسكان الراغبين في المدن الساحلية فكتب الى عثمان يسأله أن يُشخص اليه من اهل الشام والجزيرة قوماً ممن يرغب في الجهاد والغنيمة فبعث اليه معاوية الفي رجل اسكنهم واقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة

(٣٩) البلاذري . فتوح البلدان /٢٠٩ .

بها (٤٠) وقد أدّت هذه الخطوات الى ازدياد العمران وانتعاش الحياة وتوسيع آفاق التجارة وتعاظم حركة اقبال الناس ، وقد اثرت هذه الحركة في انماء شعور السكان ودفعت عن نفسهم المخاوف التي كانت تعتريهم في حالات الغزو او التعرض .

وبقي اسلوب المناوشات الحربية قائماً خلال الحكم الامويّ بعد ان استند الى خطة محكمة في احتلال الجزر القريبة ووضع الحاميات التي تقوم بواجبات الرصد واستخدام الوسائل الكفيلة بالانذار ووضع الاسطول العربي المتجول بحالة تأهب دائم .

اما في العصر العباسي فقد اصبحت شواطئ الشام ومصر بالنسبة لمقر الدولة نهايات وحدوداً ينبغي حمايتها وليس ثغورا للانطلاق منها لأن مهمات الانتقال الى عالم اوسع اصبحت غاية لا تقتصر على البحر المتوسط وانما العناية بخليج البصرة وعمان والمحيط العربي . ولم تؤد العمليات البحرية للاسطول العباسي فتوحات تستحق الذكر الا من باب تأكيد الوجود العباسي ويمكن اعتبار حملة المنصور سنة ١٥٧ اهم حملة بحرية نجحت في الهجوم على قبرص واسر حاكمها البيزنطي .

ويشهد عهد الرشيد والمعتصم والمتوكل حروباً بحرية طاحنة على جبهة الروم يسجل فيها المقاتلون مفاخر حربية متميزة على امتداد الجبهة او في هدم الحصون المنيعة أو حماية الثغور وإن استكمال عناصر الحرب استعدادا لمواجهة الخصوم وتهيئة لخوض المعارك التي أصبحت تواجههم في البحر كانت تفرض عليهم اعداد الوسائل الكفيلة بهذا السلاح ..

وقد ادّى هذا التهيؤ والاستعداد الى احكام السيطرة على الدولة البيزنطية . في عهد الرشيد وفي سنة ١٩١ اغارت بعض السفن الاسلامية على جزيرة

(٤٠) البلاذري . / فتوح البلدان / ٢٧٨ .

رودس وعادت محملة بالغنائم . وعرف الامين باهتمامه ببناء السفن ، وكان الخلفاء العباسيون قد وجدوا فيها وسيلة من وسائل النزهة وسبباً من اسباب الراحة وهم يمخرون عباب دجلة وينتقلون بواسطتها من قصر الى قصر أو من مكان الى مكان . ولكن بناء سفينة الامين (الدلفين) ووقوف الشعراء عند ذكرها واوصافها يؤكد تطور صناعتها التي كانت تصنع وفق اشكال الحيوانات كالأسد والعقاب (٤١) .

ويذكر الطبري في حوادث سنة عشرين ومائتين أن عُجيف بن عنبسة دخل بازط الى بغداد بعد قهره اياهم حتى طلبوا الأمان فامنهم فخرجوا وكانت عدتهم سبعة وعشرين الفاً بلغت المقاتلة منهم اثنى عشر الفاً تحملهم السفن واقبل بهم حتى نزل الزعفرانية ثم عبأهم في زواريقهم على هيأتهم في الحرب والمعتصم في سفينته التي كان يقال لها الزو (٤٢) .

إن هذا الخبر يكشف عن استعداد المعتصم لتهيئة اعداد من السفن تكفي لاثني عشر الف مقاتل وان سفينته الكبيرة التي اتخذها منصة للعرض تؤكد اهتمامه بهذا الجانب وانصراف جانب من رعايته لهذا النوع من السلاح ..

وتشكل معركة دمياط تحولاً جديداً في القتال البحري الذي وقف عنده الطبري وقفة مقتضبة في احداث سنة ثمان وثلاثين ومائتين (٤٣) . وتأتي قصيدة البحتري في مدح احمد بن دينار بن عبدالله ووصفه مركبه (الميمون) الذي اتخذه قاعدة في معركته المباركة وثيقة تاريخية دقيقة لوصف هذه المعركة وتفصيل اخبارها . وتقع القصيدة في اربعين بيتاً تحدث في القسم الاول منها عن فصل الربيع الذي كانت فيه الغزوة فمازج بين سبائب البرود وزرابي

(٤١) ابو نواس . الديوان /٤١٤ (نشر الغزالي) .
(٤٢) الطبري . تاريخ الطبري ١٠/٩ .
(٤٣) الطبري . تاريخ الطبري ١٩٣/٩ .

عبقر وسقوط القطر . وزين لوحته بسقوط المطر كاللؤلؤ المتحدر والنور الاحمر المشوب بجوهر متساقط ، حتى إذا قابلته الشمس ردّ ضياءها مثل الاقحوان المنوّر انها لوحة تداخلت ألوانها بشكل فني وتشابكت فروعها بتنسيق رائع وانحدرت قطراتها المتلاصقة لتستكمل لوحة الاشراق الصباحي وهي تبتسم لكل وجه صبوح .. انها التمهيد الذي قدمه الشعر تيمناً بالنصر وتفاؤلاً بالظفر وثقة بقدرة المقاتلين بكل ما يجعل المعركة لصالح جيش القائد العربي ولم ينس البحتري وهو في طريق الغزو التفاتة علوة اغنية الصبا والجمال ، وانشودة العاشق الذي ترك قلبه وعاش كل كلمات الوداع التي ودعته بها بعد أن حاولت اخفاء شوقها ولم ينس البحتري نهره الخالد الذي احتفظ وهو يودعه بالتفاتة المتذكر ليتجه الى بلاد الشام ... انها وحدة الانتماء التي شدّت بين شوق الشاعر وحنينه ويستمر بالحديث عن احمد الذي تولى البحر والجود صنوه بسبعة ابيات ليغدو على الميمون صبحاً فيغدو الميمون تحته اما النوتي الذي يرتقي برج الصاري فيصبح عند الشاعر خطيباً يرتقي ذؤابة المنبر إذا عصفت ريح الجنوب اعتلى جناحي عُقاب . وحول هذا القائد ركّابون للهول تميل المنايا حيث تميل اكفهم واذا رشقوا بالنار كان رشقهم يشوي اجساد اعدائه فتتحول الى شواء مقشر .. بعد أن جابه بهم اصحاب اللحى . ان هؤلاء الركابين يسوقون اسطولاً تنوعت سفنه وضج البحر من وقع رماحهم ويواصل الشاعر حديثه عن هذه المعركة التي تضاءل صوت قتالها في اسفار التاريخ ، وخفتت انوار اللهيب الذي اشعلها هذا القائد في احاديث المؤرخين(٤٤).

لقد وجد شعر الحرب في العصر العباسي مادة تختلف في ادائها ومعانيها عن المادة التي استخدمها الشعراء قبل هذا العصر بعد أن تداخلت المعاني واستقرت الافكار واتسع باب المزاوجة في الألفاظ والتوليد في الافكار والتعابير وتقليب

(٤٤) البحتري . الديوان ١/٤٥٠ ـ ٤٥٢ .

المفردات وفق المعاني المتقاربة والمتضادة وهو ما أطلق عليه فن البديع وقد ادى استخدام هذا الفن الى براعة لغوية متميزة وابداع فني وتركيبي في خلق الصور وايجاد الوسائل التي نثرت في اناشيد المعارك اصواتاً من الموسيقى ووزعت الحاناً حماسية ارتفع فيها لهيب المعارك بضرامة اشد وتعالت في ابهائها قعقعة السيوف اللامعة واجتياح القلاع الحصينة وحصار الحصون المنيعة ، وقد أغنت اساليب الحرب الجديدة ووسائل القتال التي وفرتها طبيعة المعارك أدب الحرب بصياغات لفظية وبلاغية وأضفت عليه من عناصر الحدة والاحتدام ما جعله ادباً متحركاً في كثير من صُوره ومفرداته وهي خصيصة فرضتها شدة المعارك وألهبتها قوة المجابهة التي صاحبت الغزوات المتتالية بعد ان اصبحت الحرب سجالاً وكان الشعر فيها يأخذ مداه القومي من حيث التعبير والفني من حيث الاداء والشعوري من حيث الاحساس الذي يساور المقاتلين والتسجيلي لبطولاتهم الفريدة وقدراتهم المتميزة .. ويمكن اعتبار هذا النمط الحربي قاعدة ارتكز عليها الشعر الحربي الذي سجل بعد هذه الفترة حتى نهاية الغزو الصليبي .

وتكبر مساحة ادب الحرب في القرن الرابع الهجري بعد أن افرد المتنبي ديواناً خاصاً بالسيفيات بلغ تعدادها ثمانياً وسبعين قصيدة ومقطوعة ارخت المعارك الحاسمة التي خاضها سيف الدولة ابتداءً من « فرشنة » و « مرعش » و « الحدث الحمراء » و« الدرب » والثغور التي سجل فيها المتنبي واقع شعره الحربي وصور حالات الانتصار التي خاضها سيف الدولة وكشف عن مهارته في فنون الحرب ووصف جيوشه التي ملأت الفضاء كثرة ومضاءها وهي تنزل بالاعداء الهزائم وتقتنص الأسرى . ووقف عند تصوير خيله والكماة من رجاله وهي اوصاف لا تقف عند الصورة الثابتة وانما تتجاوزها الى الحالة المتحركة وهم يجابهون الأعداء . ويكيلون الطعن لهم وغبار الوقائع

وهو يغطي سماء المعارك ولم يبعد عن ذهن الشاعر صور اولئك الأسرى المقيدين الذين لازمتهم الاغلال ووثقت ارجلهم القيود (٤٥) وهو ما ظل بعيداً عن وثائق المؤرخين المسلمين الذين اكتفوا بالاشارات الموجزة . وعبروا عن الحدث القريب وانصرفوا الى تدوين الأخبار التي اصبحت صلتها بمشاغل الخلافة وما تعرضت له من مداخلات اكثر من انصرافهم الى تسجيل الوقائع التي ابتعدت عن مركز الخلافة بسبب الأزمات الخانقة التي بدأت تعصف بهذا المركز . فالصور التي يتحدث عنها المتنبي بعد مجيء الدمستق الى (مرعش) بعد معركة (فرشنة) وما أنزله فيها من تهديم وفعله من تخريب . وشخوص سيف الدولة لطرد هذا الغازي فاعاد بناء السور وشيد القلعة واوقع بجيش الروم الهزيمة . لم تأخذ من حجم الحدث التاريخي ما اخذته في شعر المتنبي ولم تتناسب اشادة المؤرخين مع الفعل الكبير الذي فعله هذا الفارس وهي من غرر الشعر الذي يتداول على الالسنة وينشد في مواضع الاستشهاد ويستلهم من مواقع التلاحم والمنازلة ..

فديناك من ربـــع وان زدتنا كربا
فانك كنت الشرق للشمس والغربا

ثم يشير الى اهل مرعش مهنئاً ...

هنيئاً لأهل الثغر رأيك فيهـــم
وأنك حزب الله صرت بهم حزبا

فيوماً بخيل تطرد الروم عنهـــم
ويوماً بجودٍ تطرد الفقر والجدبا

سراياك تترى والدمستق هـــارب
واصحابه قتلى وأمواله نهبـــى

(٤٥) ينظر ديوان المتنبي .

أتى (مرعشاً) يستقرب البعد مقبلاً
وأقبل إذ أدبرت يستبعد القربـــا
ولـــكنه وّلى وللطعـــن ســـورةٌ
إذا ذكرتها نفســـه لمس الجنبـــا

واذا كان السيف يحمل في نظر الشاعر سمة خاصة تربطه بالقوة وتجعله قرين النصر والظفر (٤٦) ورفيقاً للشجاعة والصورة النموذجية للمجد فانه يُصبح نظيراً لسيف الدولة وكأنه اراد ان يقرن القوة المتناهية بقدرة البطل الممدوح ، واذ استوقف الرمح واجزاءه حربيات المتنبي وهو يغني المعارك بضروب السلاح (٤٧) . . فان الخيل كان لها مكانها البارز في معجمه الحربي بعد أن عرفنا ولعه بها ومعرفته بحقيقة خصائصها وجمالية اشكالها وعتقها وألوانها حتى اصبحت قرينـــة من قرائن القـــوة وسبباً من أســـباب مطاردة الخصوم (٤٨) .

ومن يتابع صور هذه المفردات وغيرها من اسباب القوة يُدرك شدة تعلق الشاعر باستمرارية الحركة التي ظلت محوراً من محاور الشاعر بعد أن جعل الخيل تطرد الروم أو تغذ الركض أو براها أو ترفـــع أذنابها او تمطر الاعداء بالحديد وتظلهم بالسيوف .. (٤٩) .

---

(٤٦) استعمل المتنبي السيف اربعاً وسبعين مرة وخمسة وعشرين لفظاً تدل على السيف أو على اجزائه كالحسام والصارم والمهند والنصل والغمد ويبلغ مجموع هذه الألفاظ مائتى مرة (ينظر سيفيات المتنبي. سعاد المانع/١١) .
(٤٧) استعمل المتنبي الرمح واجزاءه اربعاً واربعين مرة (ينظر سيفيات المتنبي. سعاد المانع / ٣١) .
(٤٨) استعمل المتنبي لفظ الخيل ثمانياً وخمسين مرة والجياد عشـــرين مرة ينظر سيفيات المتنبي . سعاد المانع /٩٩) .
(٤٩) المتنبي / الديوان ٣/٣٧٤ .

رَمَى الدَّربَ بالُجردِ الجيادِ الى العدا
وما عَلِمُوا أن السِّهامَ خُيُــولُ

شوائل تشوالَ العقارب بالقنَــا
لهــا مرَحٌ مــن تحتــه وصهيل

وخيل براها الركض في كل بلدةٍ
إذا عَرّستْ فيهــا فليسَ تقيــلُ

فما شعروا حتى رأوها مُغيــرةً
قباحــاً وامّا خلقُهــا فجميــلُ

سحائب يمطرن الحديد عليهــم
فكَــلُّ مكانٍ بالسيوف غسيل

وعادت فظنّوهــا بموزارَ قُفّلاً
وليس لهــا الإ الدخولَ قُفُول

فخاضت نجيعَ الجمــع خوضاً كأنّه
بكُلّ نجيــع لم تَخُضْهُ كفيل

تسايرها النيران في كلّ مسلكٍ
بــه القوم صرعى والديارُ طلول

فالصورة التي يقدمها الشاعر توحي بحالة الفزع التي كانت تنتاب جيوش الروم وهم ينزلون عليهم كالسحائب لما فيها من بريق الاسلحة وصياح الابطال وجعل مطر هذه السحائب الحديد لأنها تنصب عليهم بالسيوف والاسنّة وتتعاظم الصورة في ذهن المتنبي لتجعل السيوف مطراً أو تجعل افناءها لهم بمنزلة غسل الارض منهم .. ويرسخ الشاعر صورة الخيل ثانية بعد ان اصبح الروم لا يُميزون بين عودتها الى ديارها او دخولها عليهم من شدة ذعرهم وهول فزعهم . وان النيران تساير الخيل اينما سارت وحيثما

اتجهت وفي هذه اللوحة تكبر صورة الجند وتعظم هيئة الخيل وهيبتها وهو ما كان المتنبي يسعى اليه من خلال استمراره لذكرها واضفاء كل الصفات التي تجعلها اكثر قوة واشد مقاومة .

وتظل معركة الحدث الصوت الحربي المتميز في حربيات المتنبي لما تركته من أثر وحفلت به من اهتمام على لسان المستشهدين بشعر المتنبي ولعل مطلع القصيدة الذي اصبح يُنشد على كل لسان . .

على قدر أهل العزم تأتي العزائـــم وتأتي على قدر الكرام المكارم . .

يمثل الشهرة التي اكتسبتها وهي تمنح سيف الدولة خصائص البطولة بعد أن يُصبح ما في همته ليس في طاقة البشر تحمله لانه يريد ان يجعل من الناس اصحاب شجاعة واقدام ويستعيد في ذكره معاني الشعراء القدامى فهو يكفى الطير مؤونة طلب الاقوات لكثرة القتلى في وقائعه . ويكفيها ما تفنتقر اليه من مخالب قوية مفترسة . بعد أن خلقت اسياف سيف الدولة التي تقوم بكفاية قوتها . وتبلغ الصورة حدتها بعد أن تصبح الجماجم التي اجرت عليها من الدماء قبل ما اجرت عليها من السحائب من الماء فهي لا تدري اي هذين الفريقين احق بأن يسمى بالغمائم لانهما استويا في السقيا (٥٠) وتظل صورة الجيش المدجج بالسلاح لكثرة ما عليهم من الحديد وعلى خيولهم صورة لها هيبتها حتى تبدو الخيول بلا قوائم لما علاها من الحديد كما يعبر عنها الشاعر .. ان اختيار النماذج القليلة أو الزقرف هذه الوقفة القصيرة عند هذه القصائد يمثل اختياراً من مجموعة كبيرة امتدّ بها الوصف التسجيلي لاحداث خطيرة ومواجهات بهتت ألوانها عند المؤرخين على الرغم من الاخطار التي كانت تترتب عليها والصراع السياسي الذي كان يؤججها والتحديات التي صاحبتها

(٥٠) ننظر القصيدة في الديوان ١٢٢/٤ .

وهي تتكرر على امتداد الحدود وتسجل من خلالها روائع البطولة ويكتب المقاتلون صفحات مشرفة من صفحات التضحية واذا كان التاريخ قد اغفل هذه الاحداث فان تاريخ الأدب ظل بعيدا عنها لاعتماده على الاحداث التاريخية بشكل تقليدي فأطفأ وهجاً آخر كانت أقباسه تنير ساحات المعارك وومضاته تضيء زوايا ادب الحرب في هذا العصر . بعد ان تهيأ للعصر ، الفارس الشاعر والشاعر الفارس فحملا روح الفروسية وقدرة التعبير وبطولة الأداء القتالي .

ويشوب صوت ابي فراس رنين الأسى وحسرة الأسر وهو يرسل قصائده أو (روملياته) وقد وضح فيها صوت الفخر وارتفعت روح التحدي وأخذ سياق القصيدة حالة الدعوة الى التساؤل او المباشرة (٥١) .

أتزعمُ يا ضَخْمَ اللغاديد أننا
ونحن أُسودُ الحرب لا نعرفُ الحربا
فويلكَ من للحرب إن لم نكن لها
ومَن ذا الذي يُمسي ويُضحي لها تربا
وَوَيلك من أردى أخاك بمرْعَشٍ
وحلّلَ ضرباً وجهَ والدك العَضْبا
وَوَيلك من خلّى ابنَ أُختك مُوثقاً
وخلاّك باللُّقان تبتدرُ الشِّعبا
أتُوعِدنُا بالحرب حتى كأنّنا
وإيّاك لم يُعْصَبْ بها قَلَبُنا عِصْبا

ويواصل الشاعر الفارس :

فَسلْ بَرْدَ ساعَتّا أخاكَ وصِهْرَهُ
وسَلْ آل بَرْدا ليسَ اعظمكم خَطَبا

(٥١) ابو فراس . الديوان /٤٢ ـ ٤٣ .

وسَلْ قُرقُواسا والشَّميشَقَ صِهرَهُ
وسَلْ سبَطه البطريقَ أثبتكم قلبا
وسَلْ صيدكُمْ آل الملاين إنّنـا
نَهْبنا ببيض الهند عزّهُمْ نهْبـا
ألم تُفنهمْ قتلاً وأسراً سيُوفُنـا
وأُسدَ الشرى الملأى وان جمدتْ رُعبا

انها وجه آخر من وجوه أدب الحرب الذي تقاسمه الشاعران وهما يخوضان معارك الثغور على اشدّها ويصولان صولات الابطال على حدتها وينافحان عن الارض والانسان والكرامة فكانت معاني الفخر تكتسب عندهما طعماً خاصاً وصور المباهاة تأخذ حجماً متميزاً ، وقوابس الاستلهام تمتد الى عمق تاريخي يجد فيه ابا فراس عمقاً اوغل من المتنبي وايحاءً اشدّ صلة بتاريخه الحافل بمعاني البطولة .. انها وجوه ماتزال الدراسات الادبية غير قادرة على جلائه وبعيدة عن النفس القومي الذي امتدّ في ديوانيهما حساً مشتركاً وصوتاً بطولياً رائداً يعبر عن التاريخ السياسي المعاصر لهما ، ويلوّن الحياة بومضات الأحياء المباشر لروح المقاومة والبعث لأسباب المجابهة . . ان حرب الثغور كانت صوتاً له وقعه في كيان الدولة وله نفسه في تحقيق البقاء الثابت للفكر العربي الذي وجد في عروبة الدولة الحمدانية ما لم يألفه في بقية دول الطوائف فازدهر العصر فكراً وانطلق من ايمانه بحق الدفاع قوة ترد الخصوم ، وجيشاً ينازل الروم ورجالاً يحمون الثغور دفاعاً عن الشرف وصوناً للكرامة .. والثغر عند ابي فراس وتكرار الدفاع عنه وصد الغزوات اصبح داءً لا يواسيه الإ سيف الدولة بعد ان اعيا دواؤه .. (٥٢) .

(٥٢) ابو فراس . الديوان /١٠٨ .

أسا داءَ ثغرٍ كان أعيا دواؤه
وفي قَلْب مَلِكْ الروم داءٌ مخامرُ
بنى ثغرها الباقي على الدهر ذكره
نتائج فيها السابقات الضوامـــر
وسوف على رغم العدّو يُعيدُهـــا
مُعَوَّدُ ردّ الثغـــر والثغر دائر ..

ويعلو في ذكر مفاخره باني الثغر (سيف الدولة) الذي شق الى نفس (الدمُستق) جيشه فسقى (ارسناساً) من دماء قتلاها واوردها (أعلى قلونية) (٥٣) وتتوالى اسماء المدن التي خرت لجيشه معاقلها سجداً مثل (جلباط) و(العمق) و(والبرج) و(اللقان) .. وهي لوحة متكاملة فيها مسيرة الجيش وأيام القتال واماكن الوقائع وحالات الانتصار . فيقول .(٥٤)

وأوقع في جُلباط بالروم وقعةً
بها العمقُ واللُكّام والبرج فاخرُ
وأوطأها بطن اللّقان وظهـــرَه
يَطَأنَ به القتلى خفاف خوادر
أخذتَ بأنفاس الدُمستُق وابنه
وعبّرنَ بالتيجانِ من هو عـــابرُ
وجُبْنَ بـــلادَ الروم ستين ليلةً
تغادر ملك الـــروم فيمن تغـــاور
تخِرّ لنا نلكَ المعاقلُ سُجّداً
وترمي لنا بالأهـــل تلك المطامِرُ

(٥٣) تنظر ابيات القصيدة نفسها / ١١٣ .
(٥٤) ابو فراس . الديوان /١١٤ .

ومازال منا جارَ خرشنة امْرِؤُ
يُراوحُها في غـارة ويُبـاكـر
ولما وردنـا الدربَ والروم فـوقهُ
وقدّر قسطنطين أن ليس صـادر

فصوت القوة كان دائم التردد في حديث ابي فراس وهو يرى سنابك خيل سيف الدولة تطأ ارض الروم في كل مرة يتجرأون على مهاجمة ارضه وأن ليس يعصمهم من بطشه سهل ولا جبل ولم يثنـه عن قيادة جيشه وهو يردّ الاعتداء عن الثغور شغل ولا ملل . فمازال هو القرم الذي يحمل اثقال المواقف الصعبة بخيل ضامرة وسيوف قواضب وسمر لدنة ورجال اشداء ، يطوي صيفه بخرشنة ويمضي بعض الشتاء فيها (٥٥) ..

مازال سيفُ الدولةِ القرمَ الذي
يَلْقي العظيمَ ويحمـلُ الأثقالا
بالخيلِ ضُمْراً والسيوفِ قَواضباً
والسمرِ لُدْناً ، والرجـال عجالا
ومُعَوَّدِ فكّ العُناةِ مُعـاودٍ
قتـلَ العُداةِ اذا استغار أطـالا
صيفْنَا بخَرْشنةٍ وقَطّعنـا الشتا
وَبنُو البوادي فـي قُميرَ حِـلالا
وغداً تزورُكَ بالفِكـاك خيولُه
مُتُثاقلاتٍ تنقُلُ الأبطـالا

لقد مهد هذان الشاعران لقاعدة شعرية واسعة في أدب الحرب وا ضافا الى هذا الفن الشعري ابواباً جديدة وهيّآ له من المفردات والصور والتراكيب

(٥٥) ابو فراس . الديوان /٢٢٧ .

ما أهلّه لأخذ دوره في الحروب الصليبية التي كانت بداياتها في هذا العصر من حيث التهيؤ والاستعداد من قبل الروم أو البزنطيين الذين وجدوا في الدولة العربية نداً قوياً ودولة تجابه اطماعهم وتسقط احلامهم ، ويزخر القرن السادس والسابع الهجري بالشعراء الذين وجدت البطولة في قصائدهم صدى واضحاً فابن عُنيْن الشاعر الدمشقي يرحل الى بغداد ليجد فيها بغيته ويتزود من ينابيعها ما يرُضى طموحه العلمي بعد أن ضاقت به اوضاع دمشق وحُدّدت اقامته واضطر الى مغادرتها بعد أن تعرض للتفى والابعاد . ووجد أن الايوبيين هم أولى بشعره وكانت وقعة الفرنج على ثغر دمياط سنة ثماني عشرة وستمائة ذات اثر في شعره فكانت قصيدته فيها مزجاً بين الفخر والاعتزاز . والبطولة والرجولة والاقتدار والعفو بعد أن جمع فأحسن وعبّر فأوفى ووصف فأجاد .. (١)

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنّا
إذا جُهِلتْ آياتُنـــا والقَنَا اللُّدنا
غداةَ لَقِينا دون دمياط جحفـــلاً
من الرّومَ لا يُحصَى يَقيناً ولا ظَنّا
عليهم من الماذيّ كلُّ مُفاضـــةٍ
دِلاصٍ كقرْن الشمس قد احكمتوَضْنا
وأطمعهم فينا غرورٌ فأرقـــلوا
إلينا سِراعاً بالجيـــاد وأرقلنـــا
فما برحت سُمرُ الرمـــاح تنوشُهم
بأطرافها حتى استجاروَا بنا منّـــا
لَقُوا الموت من زُرْق الاسنة احمراً
فأَلقَوْا بأيديهـــمْ إلينـــا فأحسنّا

وما بَرَحَ الإحسان منّا سجيةً
توارثَها عن صَيد آبائنا الأبْنا
منحنا بَقاياهم حياةً جديدةً
فعاشوا بأعناق مُقلّدةَ منّا
ولو ملكوا لم يأتلوا في دمائنا
وُلوغاً ولكنّا ملكنا فأسجحنا
فكم من مليك قد شددنا إساره
وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا

فالشاعر في هذه المتابعة الفنية يرسم اللوحة الكاملة ولما حاوله الغزاة وسعَوا اليه وقد اتفقت جُموعهم من كل حدب وصوب لتغتصب ارضاً عزيزة على أهلها ، كريمة بأمجادها وقد لبسوا الحديد وتدافعوا طمعاً وغروراً وتكاثروا سراعاً بالجياد .. ولكن سمَر الرماح ناشتهم باطرافها فاستجاروا فهابهم وهو تركيب لفظي متوازن وتعبير شعري اضفى على القافية قوة الضمير (نا) فحقق الاستجابة الداخلية لثقة الشاعر بنفسه وبقومه . فكان لقاؤهم الموت من زرق الاسنة وقد ارتوت من دمائهم فاستسلموا طائعين ، وألقوا سلاحهم متخاذلين ، ورفعوا ايديهم مستنجدين ولم ينس الشعر الجانب الانساني الذي عرف به المقاتل العربي وهو يُحسن الى الذين لا يجدون بُداً من الاستسلام لأن الاحسان طبيعة جبلوا عليها بعد أن توارثوها خُلقاً وآمنوا بها سلوكاً وحملوا مبادءها ايماناً وعدالة .. واصبحت الحياة الجديدة التي منحوها لهم بداية لتصوّر مستقبلي يفتح أمامهم سبل السعادة وراحة الضمير وانسانية التعامل . وقد حشد الشاعر لصوره هذه ما يوازن غرضها ويُهيء لها قدرة الايحاء فزخرت بالفاظ (الخيل) و(يوم الوغى) و(الجحفل) و(الماذيّ) و(الدلاص) و(الجياد) و(سمر الرماح) و(زرق الاسنة)

و(الاسار) و(الاسير) . إنها المفردات التي تكثف المعنى المراد ، وتملأ اللوحة بالعطاء الحربي ، وتوفّر لها الرؤية المعبرة وتتسع دائرة الشعراء في نهاية العصر العباسي — قبل دخول التتر بغداد — وتكبر احاديث الشعراء وهم يتغنون بامجاد الأمة ويُشيدون برجالها وقادتها ممن يستذكرون فيهم المحامد والمآثر ويتوسمون فيهم المناقب والمفاخر ليعيدوا الى الامة وجهها الصبوح بعد أن تعاظم دور الغرباء في ارجائها وتوزعت ارضها بين ملوك وامراء لا تربطهم بمصير البلاد وشائج ولا تشدهم الى ابنائها صلة رحم وكان الشعراء يجدون في كل تقارب بريق أمل ويضمنون مدائحهم اوصاف الاحداث الكبرى التي تحدق بالأمة ، وينوهون بذكر انتصاراتها على الصليبيين والتتر في الوقائع الهامة ، ويسهمون في توطيد الصلات بين الاقطار العربية لاعتقادهم بأن هذه الوحدة هي الرد الحاسم على التجزئة والمجابهة الحقيقية لكل تشتت . ويمكن اعتبار قصائد الصاحب شرف الدين الانصاري المتوفى سنة ٦٦٢ هـ من اولئك الذين تغنوا بانتصار العرب على التتار وفي عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (٥٦) . .

رُعت العِدا فضمنتَ ثلَّ عروشها
ولقيتها فأخذت فلَّ جيوشهـــا
نازلت أملاك التتار فأنـــزلـــت
عن فحلهـــا قسراً وعن اكداشها
روّيت اكبادَ القنا بـــدمائهـــــم
لمّا أطال سواك في تعطيشـــها
دارت رحى الحرب الزبـــون عليهم
فغدت رؤوسهمُ حطـــام جريشها

(٥٦) الصاحب بن شرف الدين الانصاري . الديوان /٢٧٠ .

وطويت عن مصرٍ فسيح مراحـــلٍ
ما بين بركتهـــا وبيـــن عريشها

إن هذه الوقفات القصيرة عند شعر الحرب تؤكد التوجه الصادق الذي ظل الشعراء حريصين عليه ، روحاً تتواصل من حيث الاحساس ، ووفاءً يتجلى في الحفاظ على روح الانتماء واقتداراً يستمد العزم من ضمير المعارك الحربية التي سجل فيها الأبطال اياماً خالدة .. وقد ظل الشعر العربي يمدّ الشعراء بالمعاني التي توالى عليها فنهم الحربي ، ولكنه في كل صفحة من صفحاته يُظهر لوناً يكشف عن قدرة الشعراء الذين وجدوا في كل اسلوب من اساليب القتال صورة جديدة ، وفي كل وجه من وجوه المعارك سمات متميزة ، وفي كل وقعة طريقاً لاظهار جَلد القادة وصمود المقاتلين وايمان المؤمنين الذين تشربت في نفوسهم مبادئ الابطال وفروسيّة المشاهير من رجال الأمة . ولم تعدم القصائد من ذكر الوقائع الحاسمة التي بقيت تتأنق بنصاعة انتصارها ، وتشرق بروعة امجادها .

وتتّقد جذوة الشعر الحربي بوضوح خلال الحروب الصليبية التي اظهر فيها المقاتل العربي شجاعة نادرة وبطولة متميزة ، يستمدها من مفاخر امجاده ، ويستلهمها من عزمات الرجال الذين بقيت ذكرياتهم حيّة في ضمير المقاتلين ورؤاهم الشجاعة متألقة عند احتدام المعارك ..

أبى الله الإ ان يكونَ لنا الأمرُ
لتحيا بنا الدُّنيا ويفتخرَ الفخرُ
وتخدمنا الأيـــامُ فيما نَرومُـــهُ
وينقادَ طوعاً في أزَمَّتنا الدهـــرُ
جعلنا الجهادَ همَّنا واشتغالنَا
ولم يُلهِنـــا عنه السماعُ ولا الخبر ..

انه صوت اسامة بن منقذ وهو يتحدث عن اسباب الظفر والنصر ويجدد الثقة التي اصبحت جزءً من حياة المقاتل ويهيئ الوسائل الكفيلة التي ترسخ في وجدانه روح المقاومة وتحقق في ذاته اسباب النصر بعد أن امتلك ارادة الحياة ، وخيّر نفسه بين حالتين واتخذ قراره باختيار الجهاد الذي يفضي به الى حياة الاستشهاد والذكر الحميد والراحة الأبدية .. ومن الطبيعي ان تكون لغة الشاعر هي لغة المزاوجة بين دماء العدا والراح ، ووقع المواضي ومواصلة الاعداء عوضاً عن وصل الأحبة وزيارتهم الواجبة تسقط الغرض .. وإذا كانت قصائد الشعراء تذكرنا بقادة الثغور والحصون فان اسامة بن منقذ هو الشاعر المعبر عن المباشرة وهو القائد المدرك لقتال الحصون بعد ان تتوزع جثث الخصوم في الوهاد المحيطة بهذه القلاع والحصون وإذا بالدماء تجري في كل منخفض وقادتهم بين أسير وهالك وديارهم بين ساقط ومنهار .. انها الصورة التي تلازم الشاعر بعد المعركة وقد خفقت بنصره رايات الظفر وتحققت بقيادته أسباب الانتصار المؤزر فكان نشيده الحربي .

وفي سجننا ابن الفُنش خير ملوكهم
وان لم يكن خيرٌ لديهمْ ولا بـــرُّ
أسرناه من حصن العُرَيمةَ راغماً
وقد قُتلَتْ فرسانُه فهم جُزْرُ
وسلْ عنهم الوادي باقليسَ انه
الى اليوم فيه من دمائهم غُدْرُ
هُمُ انتشروا فيه لـــردّ رعيلنا
فمن تربه يوم المعَاد لهم نشـــرُ
ونحن أسرنا الجوســـلين ولم يكَنَ
ليخشى من الأيامِ نَائبـــة تعرو

واذا كانت تفاصيل المعركة تأخذ في قسمها الأول هذا الحديث الذي يترك للقارئ صورة الأعداء وقد سقُوا كأس المرارة وجُرّعوا غصص الهزيمة وتناثروا اشلاءً ممزقة .. وإذا كان الشاعر قد أوحى انا صورة الأمل الذي راود هؤلاء الغزاة في الاحتلال فإنه ردّ الصورة اليهم بان معادَهم ونشرَهم بعد أن قُتلوا شرّ قتلة سيكون من هذه الارض .. وان الغدران ماتزال مترعة بدمائهم .. فان القصيدة في قسمها الثاني تشير الى أسد الشرى وهي سهام نافذة ، لايُثنيها خوف ولاكثرة تلمع في أيديهم بيض الصوارم وتشرق سمر القنا يرون لهم في القتل خلداً وفي لقاء الخصوم عمراً ..

وجيش اذا لاقى العـدو ظننتُهمْ
اسودَ الشّرى عَنَّتْ لها الأُدُم والعُفْرُ
ترى كُلّ شهْم في الوغى مثلَ سهمه
نفوذاً فما يثنيه خوفٌ ولا كبـرُ
هُمُ الاسدُ من بيض الصَوارم والقنا
لهُمْ في الوغى الناب الحديدة والظفر
يرون لهمْ في القتل خلداً فكيف باللـ
ـقاء تَرَوْم قَتْلُهُمْ عندهم عُمْرُ

ان محاولة دراسة ادب الحرب في ضوء هذه التوجهات يغني حركة التاريخ السياسي ويغيّر كثيراً من الاحكام التي ظلت تتحكم برقاب الأحداث التاريخية ويعطي السمة التي لازمت الحقائق والوضوح الذي كان جزءً من الوقائع .

★ ★ ★